التكامل بين المستويين الصوتي والصرفي وأثره في بناء المعنى

حسن ايبورك
أستاذ بثانوية ابن تومرت الإعدادية – المديرية الإقليمية بني ملال / الأكاديمية الجهوية بني ملال، خنيفرة
طالب باحث في الدكتوراه – تكوين اللغة العربية وعلومها بجامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال المغرب

مقدمة:

لقد قسم علماء اللسانيات اللغةَ إلى مستويات عدة، وذلك من أجل فهم كنهها، وأكدوا أن أهم خاصية تميز المستويات اللسانية هي التداخل؛ لأن اللغة عبارة عن نظام متكامل، وجميع اللغات يحكمها نظام صوتي وصرفي وتركيبي ودلالي، ورغم اختلاف هذه من حيث الخصائص، إلا أنها تتفاعل فيما بينها من خلال توظيف مجموعة من الأدوات اللغوية التي تؤدي إلى إدراك البنية اللسانية للغة، وإدراك المعنى لا يتم إلا بتضافر هذه المستويات، لأن متكلم اللغة لا ينطق أصواتها أو كلماتها دون أن يتشكل معناها في ذهنه، ويشكل علم الأصوات اللبنة الأولى لأنه يدرس الصوت المفرد في ذاته أو في مجاورته لغيره، ثم يأتي علم الصرف ليدرس الكلمة والتغيرات الطارئة عليها، وتقوم فكرة هذا المقال على إشكالية تتجلى في بيان الوشائج الرابطة بين علم الصوت وعلم الصرف وأثر ذلك في بناء المعنى، وسأعالج هذا الموضوع من خلال محورين اثنين، سأخصص الأول لعرض بعض آراء العلماء في العلاقة بين العلمين، والمحور الثاني لنماذج تطبيقية، وسأختمه بخلاصة.

المحور الأول: آراء القدماء والمحدثين في العلاقة بين الصوت والصرف:

لقد اهتم النحاة قديما بالقضايا الصوتية والصرفية، وفي مقدمتهم الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أدرك أهمية الأصوات كمقدمة لابد منها لدراسة الكلمات والجمل، فقد حدد في معجم العين مخارج الأصوات وصفاتها، ورتب الأصوات أو الحروف الهجائية على أساس صوتي ابتداء من الحلق مرورا بالحنجرة والفم وصولا إلى الشفتين، وكان لهذا الترتيب ما يسوغه، قال ابن كيسان فيما حكى السيوطي:" **سمعتُ مَنْ يذكر عن الخليل أنه قال: لم أبْدَأْ بالهمزة لأنها يلحقها النقصُ والتغييرُ والحذفُ ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداءِ كلمة ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مُبْدَلَةً ولا بالهاءِ لأنها مهموسة خفيَّة لا صوتَ لها فنزلتُ إلى الحيّزِ الثاني وفيه العين فوجَدْت العين أنْصَعَ الحرفين فابتدأت به ليكون أحسنَ في التأليف**"[1]، فالخليل يعطي تبريرا صوتيا للترتيب الهجائي لمعجمه "العين" فبداية الرحلة في دراسة اللغة بدأت مع الأصوات، لتمتد إلى بقية المستويات العليا، كما حدد الخليل الحالات المختلفة للأصوات حينما تتركب فيما بينها مشيرا إلى ما يمكن أن يجتمع مع غيره في الكلمات وما يستحيل أن يتألف منه الكلام، ومن أقواله في هذا السياق أورد ما يأتي:" **القاف والكاف لا يجتمعان في كلمة واحدة، إلا أن تكون الكلمة معربة من كلام العجم، وكذلك الجيم مع القاف لا يأتلف إلا بفصل لازم. وغير هذه الكلمات المعربة، وهي الجوالِقُ والقَبَجُ ليستا بعربية محضة ولا فارسية**"[2]، ويقول في موضع آخر من معجم "العين" متحدثا عن بعض الأصوات التي لا تجتمع في كلمة واحدة:" **الضّاد مع الصّاد معقومٌ، لم تَدْخُلا معاً في كَلِمةٍ من كلام العَرَبِ إلاّ في كلمةٍ وضُعِت مثالاً لبعض حسابِ الجُمل، وهي صعفص هكذا تأسيسُها، وبيانُ ذلك أنَّها تُفَسَّر في الحسابِ على أنّ الضادَ ستّون، والعينَ سبعون، والفاء ثمانون والضّاد تسعون، فلما قَ.بُحَتْ في اللّفظ، حُوِّلت الضّاد إلى الصّاد فقيل: صعفص**"[3]، فهذه نظرات ثاقبة لهذا العالم اللغوي الجليل، وقد حذا سيبويه حذو شيخه فاهتم بالأصوات أيضا، وقسمها إلى فروع انطلاقا من الأصوات التسعة والعشرين، منها المستحسنة وغير المستحسنة، لكن الخليل اعتمد الأصوات كمدخل للعمل المعجمي، بينما اتخذ سيبويه الدراسة

الصوتية أداة لتحليل الصيغ والبنى الصرفية، لنصل إلى تجربة أكثر عمقا في التحليل الصوتي لبنية الكلمة مع ابن جني في كتابيه: "سر صناعة الإعراب" و"الخصائص"، حيث كانت الملاحظات الدقيقة لهذا العالم الجليل منطلقا للدراسات اللسانية عند اللغويين المحدثين، الذين أدركوا أن فهم ما استغلق من بنية الكلمات، لا يتأتى إلا بمعرفة الأصوات المشكلة لتلك البنية، فإدراك القضايا الصرفية لا يتحقق بعيدا عن المعالجة الصوتية، وقد كان القدماء في تحليلهم اللغوي مرتبطين بالرسم الخطي أكثر من المستوى النطقي، لهذا نادى مجموعة من الباحثين المعاصرين بضرورة ربط المستوى الصرفي بالمستوى الصوتي، لأن الظواهر الصرفية لها علاقة بعلم الأصوات، أو ذات صوتية كظاهرة الإعلال والإبدال والإدغام والهمز والتضعيف والوقف والإمالة وغيرها، لكن دون إغفال جهود علماء التراث، ومن بين هؤلاء اللسانيين العرب المحدثين: نذكر إبراهيم أنيس وتمام حسّان وكمال بشر وعبد الصبور شاهين ومحمود السّعران وغيرهم، إذ أكدوا جميعا في بحوثهم أن المستوى الصوتي هو أول خطوة في أي دراسة لغوية، سواء أكانت دراسة صرفية أم نحوية أم دلالية، وقد دعا عبد الصبور شاهين إلى ضرورة:" **وضع منهج متكامل للدرس اللغوي، ابتداء من الأصوات، إلى الصيغ، إلى التراكيب، مرورا بكل مستويات البحث، بدلا من الوضع الراهن، الذي يجعل من كل مادة مجالا مستقلا قائما بذاته، ولا علاقة له بغيره من المجالات**"[4]، إلى أن وضع الانفصال بين المستويات اللغوية كان قائما في كتب علماء النحو قديما، إذ:" **من النادر أن نجد في كتب النحو القديمة من يشير إلى الارتباط بين ظاهرة نحوية، وأخرى صوتية، مع أن الكثير من ظواهر النحو لا يمكن تفسيره إلا على أساس صوتي. وكذلك الصرف، بل هو أشد التصاقا من النحو بالأصوات ونظرياتها ونظمها**"[5].

يدعو شاهين في النصين السالفين إلى عدم جعل المستويات اللغوية جزرا متفرقة لا رابط بينها، حيث يؤكد على العلاقة المتينة التي تجمع بين الصرف والصوت وهي أقوى من ارتباط الصوت بالنحو، ويرى عبد الصبور أن الصرف العربي قديما ارتبط بالكتابة، فكان ذلك مصدرا من مصادر الخلل؛ لأن الكتابة تعجز عن بيان جوانب تتعلق بالصيغ الصرفية عكس الأصوات، يقول عبد الصبور شاهين هناك:" **فرق عظيم بين ما ينطقه المتكلم، وما تسجله الكتابة من نطقه، عاميا كان أو فصيحا، فإن الكتابة في أية لغة تعجز بطبيعتها عن تسجيل جملة من الظواهر، والوظائف النطقية العامة، كالنبر، والتنغيم في حالات الاستفهام والنفي، والإنكار، والتعجب، والتحسر، وظائف ذات دلالة مباشرة في الحدث اللغوي**"[6]، وقد كان الجانب النطقي للغة أسبق من الجانب الكتابي، وتم اختراع الكتابة بعد ذلك، فحاولت الكتابة أن تسجل الكلام المنطوق، لكنها لم تكن مستوعبة لكل جوانبه، وذهب تمام حسان إلى أن الكلام المسموع يفوق نظيره المكتوب في بيان المعنى وتوضيحه، فعلم الأصوات يلعب إذا دورا مهما في تفسير بعض الحقائق الصرفية التي يصعب على المبتدئ فهمها، خاصة في الصرف العربي وذلك في قضايا كالإعلال والإبدال وغيرهما، وهذا ما أكده كمال بشر بقوله:" **في مجال الصرف، تلعب المعرفة الصوتية دورا بارزا في تفسير بعض الحقائق العصية الاستيعاب على الناشئة بسبب علاجها علاجا ناقصا متمثلا في إهمال الجانب الصوتي في التحليل والتفسير، والصرف العربي بالذات محشو بالمسائل والأمثلة التي يعسر تفسيرها دون العودة إلى الظواهر الصوتية التي تنتظمها بنية الكلمة. يتضح ذلك مثلا بصورة مؤكدة في مسائل الإبدال وفي الإعلال بالقلب والنقل والحذف**"[7].

وقد بحث اللغويون العرب، بدءا من الخليل، في الأصوات وتعمقوا في دراستها؛ لأنهم أدركوا دورها في فهم أسرار العربية، فقد الخليل بن أحمد الفراهيدي البحث الصوتي مدخلا للعمل المعجمي في العين كما أشرت آنفا، واتخذ سيبويه علم الأصوات

وسيلة للتحليل الصرفي، يقول قدور:" **لقد تنبه علماؤنا القدامى إلى الصلة الوثقى بين الأصوات والتغييرات الصرفية، حين قدموا لأبواب الإدغام والإبدال وغيرهما بعرض الأصوات العربية ومخارجها وصفاتها، وما يأتلف منها في التركيب وما يختلف وما يعد حين اجتماعه مرذولا أو مقبولا أو حسنا أو غير ذلك مما ورد عند هؤلاء العلماء كسيبويه ومن حذا حذوه ممن جاء بعده من أهل الصناعة**"[8]، فقد أدرك سيبويه أن هناك مجموعة من الصيغ الصرفية لا يمكن فهمها إلا بتوظيف معطيات علم الأصوات، وهذا ما أشار إليه تمام حسان يقول إن:" **سيبويه كان على وعي تامٍّ بأن دراسة الأصوات مقدمة لا بُدَّ منها لدراسة اللغة، وأن النظام الصوتي ضروري لمن أراد دراسة النظام الصرفي**"[9]، إلا أن بعض الباحثين يرون أن العرب القدماء لم يستفيدوا كثيرا من علم الأصوات في الدراسات الصرفية على مستوى

التطبيق خاصة في مجال تجويد القرآن الكريم، والسبب هو الارتباط بالخط والكتابة على حساب الأصوات، وهذا ما ذهب إليه الطيب البكوش، إذ يقول:" **رغم أن اللغويين العرب قد درسوا خصائص لغتهم الصوتية درسا عميقا طريفا من جوانب عديدة وتوصلوا إلى نتائج يمكن الاحتفاظ اليوم بنسبة كبيرة منها فإنهم لم يحسنوا استغلالها في مستوى التجويد. ولم يوفقوا كثيرا في ربط الصلة بين الصوتيات والصرفيات في العربية، وكأنما أعوزهم الخيال عن تصور الأصوات بمعزل عن الكتابة فبقوا سجناء الخط المرئي**"[10]، ويؤيده في هذا الطرح أيضا علي خليف حسين، حيث أشار أن العلماء العرب قاموا بعرض المسائل الصوتية في مقدمات كتبهم كالخليل في العين وسيبويه في الكتاب، غير أنهم درسوا موضوعات اللغة العربية منفصلة بعضها عن بعض، بشكل يوحي أن علم الأصوات علم عابر ولا دور له، واقتصروا على التمهيد به لبحوثهم العلمية دون تشغيله في تحليل ظواهر صرفية أو تركيبية[11]، مما جعل عمل العرب في مجال علم الأصوات معرضا للانتقاد في جانبه المنهجي، فسيبويه مثلا عند دراسته للإدغام وهو ظاهرة صوتية صرفية، اضطرب في معالجتها[12]، ويتضح مما سلف أنه لا يمكن دراسة علم الصرف دون تحديد صوتي للمكونات التي يتشكل منها، فعلم الصرف:" **يعتمد في مسائله وقضاياه على نتائج البحث الصوتي، وهو في الوقت نفسه يخدم النحو ويسهم في توضيح مشكلاته**"[13]، فالصرف يتداخل مع النحو، ويشمل جانبا من علم الأصوات، لأن التغييرات الطارئة على صيغة من الصيغ تنقسم إلى ثلاثة أنواع، يبدو الصوت أساسيا فيها، وهذه التغييرات هي[14]:

1- تغيير صرفي: يرتبط بالاشتقاق.

2- تغيير صرفي – صوتي: يتجلى في تأثير التغيير الصوتي في بنية الصيغة صرفيا.

3- تغيير صوتي: يتعلق بالأصوات.

أستنتج من هذه الأنواع الثلاثة للتغييرات أن التغيير الأول هو التغيير الذي يحدث لغاية معنوية، أما التغييران الآخران فغايتهما لفظية صوتية لتسهيل النطق، ولارتباط النوع الأول بالمعنى فقد حظي باهتمام اللغويين في حين أن التغيير البنائي أو اللفظي:" **يكاد يهمل في الكتب المدرسية بينما هو لا يقل أهمية عن الأول، لأنه يدل على متانة الصلة بين نظام اللغة الصرفي ونظامها الصوتي**"[15]، وبناء على ذلك فالصرف العربي لم يكن ذا حظ إذا قورن بما حظي به النحو من دراسات وبحوث، فهو:" **من أقل العلوم اللغوية حظا في الإجادة وحسن النظر**"[16]، وعليه فإن أي دراسة لغوية تسعى أن تكون نتائجها علمية عليها أن تنطلق من المعطيات الصوتية، وإلا فإن مآلها سيكون القصور أو الفشل:" **فالدارس الذي يحاول أن يقف على أسرار اللغة ونظمها وظواهرها ستكون محاولاته باطلة إذا هو اقتصر في دراسته على ما وصل إليه من مفردات، فلا بد أن يرجع بالبحث إلى الوراء ليدرس الأصول التي تتكون منها الكلمات، ويتعرف خصائصها، وما ينبني عليها من ظواهر، وليست تلك الأصول التي تتألف منها الكلمات إلا الأصوات اللغوية التي يعبر عنها بحروف الهجاء**"[17]، فعلم الصرف يتضمن معلومات صوتية تتمثل في التغيرات التي تطرأ على بنية الكلمة أو في السياق في درج الكلام، وهذا يشير إليه محمود السعران بقوله:" **في ما يعرف بـ"علم الصرف" معلومات صوتية، فقد حاول الصرفيون – محاولاتهم الأولى ماثلة في كتاب سيبويه – أن يصفوا ما يطرأ على بنية الكلمة العربية المعربة من تغيرات: إما في تصرفاتها المختلفة "من إفراد وتثنية وجمع، وتذكير وتأنيث، وتصغير، ومبالغة، ونسب، وماض ومضارع وأمر... إلخ"، وإما عند وقوعها في درج الكلام في سياقات صوتية معينة "كالإدغام، والوصل" إلى غير ذلك من المباحث**"[18]، ويرى عبد الصبور شاهين أنه لا يمكن إدراك كلمة الصرف في حد ذاتها، ما لم يتم معرفة علم الأصوات؛ لأن المعطيات الصوتية تسهم بشكل فعال في إبراز خصائص الصوت إذا كان مجردا أو إذا دخل في علاقات المجاورة لغيره من الأصوات الأخرى وإن لم يغير ذلك دلالته، يقول في هذا السياق:" **ولكي نتصور ما يقصد في درسنا هذا بكلمة الصرف ينبغي أن نتتبع عناصر النطق اللغوي، ابتداء من الصوت المجرد الذي يقوم بدراسته (علم الأصوات العام) Phonétique. ثم الصوت، وخصائصه السياقية، وما ينشأ عن مجاورته لغيره من تأثير، يغير من صفاته، وإن لم يغير من دلالته، فتُكوِّنُ مجموعة أشكال**

الصوت الواحد، على اختلاف اللغات واللهجات ما يعرف بالفونيم Phonème، أو الوحدة الصوتية، وما ينشأ عن اتصال الصوامت أو (السواكن) بالحركات من نظام مقطعي"[19].

إن علم الأصوات يسهم بشكل فعّال في إدراك القضايا الصرفية، إذ إن التغييرات الصرفية تكون مرتبطة بما هو صوتي في الأساس، يقول فندريس في هذا الصدد:" **وقصاري القول إن النظام الصرفي لدى كل متكلم يحمل في نفسه من أسباب التغيير بقدر ما يحمله النظام الصوتي**"[20]، لهذا ينبغي دراسة الكلمة بالمفهوم والمنهج الحديثين، حيث يتم البدء من أصغر وحدة تتشكل منها وهي الأصوات، لأن معنى الكلمة له تأثير صوتي مباشر وغير مباشر[21] فالمباشر هو ما تدل عليه بعض الأصوات كخرير المياه، وصليل السيوف، وغير المباشر مثل القيمة الرمزية للكسرة التي ترتبط بالأشياء الصغيرة في أذهان الناس، وله تأثير صرفي كذلك كالكلمات المركبة والكلمات المنحوتة، لهذا دعا عبد الصبور شاهين إلى:" **ضرورة دراسة علم الصرف بالمفهوم الحديث وبالمنهج الحديث لأنه يتعذر دراسة بنية الكلمة بعيدا عن دراسة أصواتها ومقاطعها وعلاقة الصوامت بالصوائت، مبرر ذلك أن كل تغيير يطرأ على بنية الكلمة يؤدي إلى تفاعل العناصر الصوتية في الكلام، لذلك وجب بدء دراسة الكلمة من الأسس الأولية التي تتشكل منها وهي الأصوات**"[22].

أستنتج من كل النصوص التي سبق ذكرها أن المعطيات الصرفية لا يمكن إدراكها إدراكا عميقا، وفهمها فهما دقيقا دون الاعتماد على ما يقدمه علم الأصوات من مفاهيم ونظم ونظريات، ومن القضايا التي تجعل علم الصرف مرتبطا بعلم الأصوات ما يسمى بحروف العلة أو المد أو اللين، والحركات، وقضايا الإعلال والإبدال والإدغام والإمالة والوقف والوصل والمماثلة والمخالفة وغيرها، وسأتوقف عند بعض النماذج: كالإعلال والإدغام والحركات فهذه الظواهر تدل على تغيير يمس الكلمة العربية، وغايتها تخفيف اللفظ والاقتصاد اللغوي.

المحور الثاني: نماذج تطبيقية:

المطلب الأول: أثر حركات البينة في تحديد المعنى:

يعد موضوع حركات البينة، أي الحركات الداخلية عدا حركة الحرف الأخير التي تسمى حركة إعراب، من القضايا التي تعكس وشائج الترابط والتكامل بين المستوى الصوتي والصرفي، فاختلاف هذه الحركات ينتج عنه اختلاف دلالي، فَكَتَبَ تختلف عن كُتِبَ، فالصيغة الأولى تختلف عن الثانية رغم اتفاقهما في الأصوات الأصول، فالكلمة الأولى يُنتظر الإخبار فيها بالفاعل، أما الثانية فلا ينتظر المخاطب الإخبار عمن أسند إليه الفعل كما في هذا المثال" أُنْجِزَ العملُ" فالفعل هنا بني لما لم يسم فاعله، وكما في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(سورة البقرة الآية 183)، فكُتِب في بني لما لم يسم فاعله، وقد كان اللغويون القدماء أذكياء في إطلاق هذا المصطلح على هذه الصيغة، لأن من كَتَب الصيام هنا معروف، لذا لا يجوز ولا ينبغي أن نقول أن هذا الفعل " كُتِبَ" مبني للمجهول فاعله غير معروف، أما في الاسم فتؤدي حركات البنية دورا تمييزيا بين معاني الكلمات، ومن ذلك الكلمات المتفقة في الصورة والمختلفة في حركة الحرف الأول أو الثاني أو الثالث، ويعد قطرب أول من ألف في هذا الفن:" **ويعد كتاب "مثلثات قطرب" أول مصنف وصل إلينا في هذا الفن، ونال اهتمام من بعده**"[23]، ويقصد بالمثلث عند علماء اللغة بأنه:" **اسم يرى في الكتابة واحدا، ويصرف على ثلاثة أوجه**"[24]، أي أن حركات بنيته مختلفة، ونضرب لذلك أمثلة من مثلث قطرب[25]:

الغَـــــمْـــر مـــــاءٌ غـَـــزُرا **** والغِمْر حِقْدٌ سُتِـــرا

والغُمْر ذو جَهْلٍ سَرى **** فيـــه ولـــم يُـــجَـــرَّبِ

الغَمْر: بفتح الغين هو الماء الغزير أي الكثير، وقد ذكر ابن فارس في مقاييسه أن الغَمْر يطلق على الماء الكثير، ثم اشتقت هذه الدلالة فشملت كل ما كثر:" **(غَمَرَ) الْغَيْنُ وَالْمِيمُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةٍ وَسَتْرٍ فِي بَعْضِ الشِّدَّةِ. مِنْ ذَلِكَ الْغَمْرُ: الْمَاءُ وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَغْمُرُ مَا تَحْتَهُ. ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْ ذَلِكَ فَيُقَالُ فَرَسٌ غَمْرٌ: كَثِيرُ الْجَرْيِ، شُبِّهَ جَرْيُهُ فِي كَثْرَتِهِ بِالْمَاءِ الْغَمْرِ. الْمِعْطَاءِ: غَمْرٌ**"[26]، وجاء في لسان العرب لابن منظور أن الغَمر أيضا هو الماء الكثير، وقد شبه الرسول صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس بالنهر الغمر، يقول ابن منظور:" **الغَمْرُ: الْمَاءُ الْكَثِيرُ... وَجَمْعُهُ غِمار وغُمور. وَفِي الْحَدِيثِ: مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ كمَثَلِ نهْرٍ غَمْر؛ الغَمْرُ، بِفَتْحِ الْغَيْنِ وَسُكُونِ الْمِيمِ: الكثيرُ، أَي يَغْمُر مَنْ دَخَلَهُ ويُغطِّيه. وَفِي الْحَدِيثِ: أَعوذ بِكَ من مَوْتِ الغَمْر أَي الغرَق**"[27].

الغُمْر: بضم الغين الجاهل بالأمور، منعدم الحنكة وعديم التجربة، وهذه الدلالة ذاتها أشار إليها ابن منظور:" **غُمْر، بِالضَّمِّ، وَهُوَ الغِرُّ الَّذِي لَمْ يُجَرِّب الأُمور؛ قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: و يُقْتاس مِنْ ذَلِكَ لِكُلِّ مَنْ لَا غَناء عِنْدَهُ وَلَا رَأْي. وَرَجُلٌ غُمْر وغَمِر: لَا تَجْرِبَةَ لَهُ بِحَرْبٍ أَمر وَلَمْ تحنّكه التَّجارب**"[28].

الغِمْر: بكسر الغين هو الحقد الدفين، وجاء في اللسان:" **لَا ذِي غِمْرٍ عَلَى أَخِيهِ**

أَي ضِغْنٍ وَحِقْدٍ"[29].

ومن الأمثلة أيضا من مثلث قطرب دائما نقف عند هذين البيتين[30]:

الْحَلْمُ ثَقْبٌ في الْأَديـــمِ **** والْحِلْم من خُلُق الْكَرِيمِ

والْحُلْمُ في النَّوْمِ الْعَمِيمِ **** بِالصِّـــــدْقِ أَوِ الْـــكَـــذِبِ

الحَلْم: بفتح الحاء هو ثقب في الأديم وهو الجلد.

الْحِلْم: صفة خلقية وهي ضد الطيش.

الْحُلْمُ: ما يراه الإنسان في النوم وقد يتسم بالصدق أو الكذب، يقول ابن فارس عن معاني الكلمات الثلاث السالفة:" **(حَلَمَ) الْحَاءُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ...فَالْأَوَّلُ: الْحِلْمُ خِلَافُ الطَّيْشِ. يُقَالُ حَلُمْتُ عَنْهُ أَحْلُمُ، فَأَنَا حَلِيمٌ...وَالْأَصْلُ الثَّانِي: قَوْلُهُمْ حَلِمَ الْأَدِيمُ تَحْلَمُ...وَالثَّالِثُ قَدْ حَلَمَ فِي نَوْمِهِ حُلْمًا وَحُلُمًا**"[31].

نلاحظ أن حركات البنية أو ما يسمى بالصوائت قد لعبت دورا مهما في التمييز بين المعاني في الكلمات التي تتفق في الحروف أو ما يسمى بالصوامت، وهناك في المقابل كلمات تتفق في الصورة وتختلف حركة حرف من حروفها، لكنها تكون لها الدلالة ذاتها، ومن ذلك:" **الصَّفوة، الصِّفوة، الصُّفوة: خيار الشيء**"[32]. وتؤدي حركات البنية دورا تمييزيا كذلك في الصيغ الصرفية الأخرى، كاسم الآلة واسم المكان، فوزن مِفْعَل يدل على اسم الآلة، وبفتح الميم يشير إلى اسم المكان، وهذا ما أشار إليه ابن فارس بقوله:" **وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها: فهم يفْرُقون بالحركات وغيرها بين المعاني. يقولون "مِفْتَح" للآلة التي يُفتح بها. و"مَفتح" لموضع الفتح و"مِقص" لآلة القص، و"مَقص" للموضع الذي يكون فيه القصّ، و"مِحلب" للقدَح يُحلب فيه و"مَحلب" للمكان يُحتلب فيه ذواتُ اللبن**"[33]، فالحركة هنا أساسية لأنها تميز بين اسم المكان، واسم الآلة، وفي مشتقات أخرى كاسم الفاعل واسم المفعول من غير الثلاثي، فالذي يميز بينهما هو الكسرة والفتحة على مستوى الصوت ما قبل الأخير مثال: مُكْرِم (اسم فاعل) ومُكْرَم (اسم مفعول)، الأمثلة التي تلعب فيه الحركة دورا تمييزيا: التحول من الماضي إلى الأمر في غير الثلاثي مثل أَكْرَمَ – أَكْرِمْ، اِسْ تَغْفَرَ – اِسْ تَغْفِرْ، عند الانتقال من الفعل إلى المصدر كما في جَمَعَ ← جَمْعٌ، وعند الانتقال من المفرد إلى الجمع مثل: أَسَدٌ ← أُسْدٌ، فللصوت إذن تأثير حاسم في تغير الدلالة الصرفية كما واضح من خلال كل الأمثلة الآنفة الذكر.

المطلب الثاني: الإدغام وأثره في بناء المعنى:

في هذا المحور سأحاول أن أبين الجانب البلاغي للمفردة القرآنية من خلال ظاهرة الإدغام، حيث سأبين أثر الإدغام وفكه من الناحية الصوتية على المعنى، وسأتحدث عن الإدغام الجائز، إذ سأتوقف عند مجموعة من المفردات التي وردت في القرآن الكريم بطريقتين: مدغمة وغير مدغمة، وسأقدم بعض المفردات على سبيل المثال لا الحصر، ومن هذه المفردات: هذه الثنائيات (يشاقق – يشاق) – يحاد) (يرتدد – يرتد)، حيث إن الإدغام فيها جائز، وأبدأ بالمثال الأول:

❖ **يشاقق/ يشاق:**

لقد وردت كلمة "يشاقّ" في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَ نَّـهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(سورة الحشر الآية 4)، ووردت غير مدغمة مرتين: مرة في قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَـعْدِ مَا تَـ بَـيَّنَ لَهُ غَـ يْـرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُـوَلِّهِ مَا تَـ وَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾(سورة النساء الآية 115) ومرة في قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَ نَّـهُمْ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(سورة الأنفال الآية 13) وقد فسّر الزمخشري هذه المفردة:" **والمشاقة: مشتقة من الشق، لأن كلا المتعاديين في شق خلاف شق صاحبه** "[34].

فالفعل المضعف شق ورد مضارعا مجزوما في الآيات السالفة مرة مدغما ومرتين دون إدغام، وقد تبين للباحثين أن المفردة إذا كانت مدغمة، فإن معناها يتناسب مع المعنى اللغوي للإدغام؛ الذي يقوم على الخفاء والإضمار، وأن معناها في حالة فك الإدغام مع الجلاء والإظهار، وهذا ما أشار إليه البقاعي بقوله:" **أظهر الإدغام ... لأن القصة للعرب وأمرهم في عداوتهم كان بعد الهجرة شديداً ومجاهرة** "[35]، في حين أدغم في سورة الحشر؛ لأن السياق فرض ذلك، يقول البقاعي:" **أدغم في الحشر في الموضعين لأن القصة لليهود وأمرهم كان ضعيفاً ومساترة في مماكرة وأظهر القاف إشارة إلى تعليقه بالمجاهرة، ولأن السياق لأهل الأوثان وهم مجاهرون، وقد جاهر سارق الدرعين الذي كان سبباً لنزول الآية في آخر قصته – كما مضى**"[36]، فقد فك الإدغام مع ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا يتناسب مع طبيعة البشر الذي يتعلق بالظاهر من الأشياء، في حين أنه لما ذكر الله وحده جاءت الكلمة مدغمة، لأن الله عز وجل يعلم الظاهر والباطن فناسبه الإدغام.

❖ **يحادد – يحاد:**

وردت هذه اللفظة ثلاث مرات في القرآن الكريم، مرة مظهرة غير مدغمة، ومرتين مدغمة، وردت غير مدغمة في قوله تعالى:﴿ أَلَمْ يَـعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ (سورة التوبة الآية 63)، ووردت مدغمة في سورة المجادلة، مرة في قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَـ بْـلِهِمْ وَقَدْ أَ نْـزَلْنَا آيَاتٍ بَـيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾(سورة المجادلة الآية 5)، والثانية في قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ (سورة المجادلة الآية20)، وجاء في لسان العرب:" **المُحادَّة: الْمُعَادَاةُ وَالْمُخَالَفَةُ وَالْمُنَازَعَةُ، وَهُوَ مُفاعلة مِنَ الْحَدِّ كأَنّ كُلَّ وَاحِدٍ مِ نْـهُمَا حَدَّهُ إِلى الْآخَرِ. وحُدُود اللَّهِ تَـعَالَى: الأَشياء الَّتِي بيَّن تَحْرِيمَهَا وَتَحْلِيلَهَا، وأَمر أَن لَا يُتعدى شَيْءٌ مِ نْـهَا**"[37]، فالمحادة لها صورتان: باطنة خفية ويناسبها الإدغام، وصورة أخرى ظاهرة مكشوفة وقد ناسبها الإظهار" **المحادة...لها صورتان: الأولى صورة المعاداة الباطنة المضمرة المخفية وهي التي يمثلها المنافق في العادة، والثانية صورة المعاداة الصريحة المعلنة، ويمثلها العدو اللدود المجاهر بالعداوة وقد تناسب الإدغام مع الصورة الأولى، كما تناسب فك الإدغام مع الصورة الثانية التي تتخذ من المجاهرة وسيلة لها** "[38]، فالمحادة المعاداة وتجاوز الحدود من طرف المنافقين، فسورة المجادلة تتحدث عن المنافقين، ورغم أن الإدغام السّالف في الآية الكريمة واجب، إلا أنه ناسب موضوع السورة، فالمنافقون يضمرون عكس ما يظهرون، فورد الإدغام معبرا عن عداوتهم القائمة على الستر والإخفاء، أما في آية التوبة فقد جاء الفعل مضارعا مجزوما، وفي هذه الحالة فالإدغام جائز، يقول الطاهر بن عاشور:" **وَفُكَّ الدَّالَانِ مِنْ يُحادِدِ**

وَلَمْ يُدْغَمَا لِأَنَّهُ وَقَعَ مَجْزُومًا فَجَازَ فِيهِ الْفَكُّ وَالْإِدْغَامُ، وَالْفَكُّ أَشْهَرُ وَأَكْثَرُ فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ الْإِدْغَامُ قَوْلِهِ: وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ فِي قِرَاءَةِ جَمِيعِ الْعَشَرَةِ وَهُوَ لُغَةُ تَمِيمٍ "[39]، فالإظهار هنا ناسب المجاهرة في عداء الله يقول البقاعي:" **ولما كان ذكر الشيء مبهماً ثم مفسراً أضخم، أضمر للشأن فقال: {أنه} أي الشأن العظيم {من يحادد الله} وهو الملك الأعظم، ويظهر المحاددة بما أشار إليه الفك {ورسوله} أي الذي عظمته من عظمته، بأن يفعل معهما فعل من يخاصم في حد أرض فيريد أن يغلب على حد خصمه، ويلزمه أن يكون في حد غير حده {فأن له نار جهنم} أي فكونها له جزاء له على ذلك حق لا ريب فيه**"[40]، فقد فك الإدغام هنا، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر بعد الله عز وجل.

❖ **يرتدد – يرتد:**

ذُكر لفظ "يرتدّ" مدغما ثلاث مرات في القرآن الكريم، الأولى في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(سورة المائدة الآية 54)، والثانية في قوله تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(سورة إبراهيم الآية 43) والثالثة في قوله تعالى:﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ ﴾(سورة النمل الآية 40)، فارتداد الطّرْف لا يحدث أي صوت، فناسبه الإدغام؛ لأن فيه خفاء الصوت، وسنجري مقارنة بين الآية 54 من سورة المائدة التي جاءت فيها الصيغة يرتد بالإدغام، والآية 217 من سورة البقرة التي وردت فيها صيغة الفعل بفك الإدغام في تعالى:﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا ﴾(سورة البقرة الآية 217)، فالارتداد عن الدين يكون بطريقتين اثنتين[41]: طريقة سرية وطريقة مجاهرة، فالسرية يناسبها الإدغام لأن إخفاء للصوت، والمجاهرة يناسبها الإظهار والفك؛ لأن فيه إظهار للصوت، وإذا ربطنا اللفظين في الآيتين بالسياق نجد تناسبا فنيا فقد:" **وردت يرتدّ في سياق الحديث عن المنافقين، وسبقت بقوله تعالى:" فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ" الآية 52 من المائدة، السياق يناسبه الإدغام إشارة إلى أن الارتداد يتخذ لدى المنافقين جانبا سريا** "[42]، فالسرية والخفاء الذي اتسم به سلوك المنافقين في الآية يشير إليه قوله تعالى "أسروا في أنفسهم"، أما الصيغة التي جاءت بفك الإدغام فقد "**وردت في سياق الحديث عن الكفار وقتالهم للمسلمين ومحاولة ردهم عن دينهم في نفس الآية :" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" 217 من البقرة** "[43]، فقد فك هنا الإدغام فجاءت الصيغة يرتدد، وقد ناسب الإظهار هنا سياق الحال:" **لأنه يعبر عن ارتداد الكفار المتسم بالمجاهرة، وتؤكده صيغة الفعل يرتدد، وَجِيءَ بِصِيغَةِ يَرْتَدِدْ وَهِيَ صِيغَةُ مُطَاوَعَةٍ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ رُجُوعَهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ إِنْ قُدِّرَ حُصُولُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ مُحَاوَلَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ مَنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ لَا يَسْهُلُ عَلَيْهِ رُجُوعُهُ عَنْهُ وَمَنْ عَرَفَ الْحَقَّ لَا يَرْجِعُ عَنْهُ بِعَنَاءٍ** "[44]، ويشير البقاعي إلى أن جميع القراء قرأوا هذه الكلمة في الآية الكريمة بفك الإدغام:" **وإجماع القراء على الفك هنا للإشارة إلى أن الحبوط مشروط بالكفر ظاهراً باللسان وباطناً بالقلب فهو مليح بالعفو عن نطق اللسان مع طمأنينة القلب، وأشارت قراءة الإدغام في المائدة إلى أن الصبر أرفع درجة من الإجابة باللسان وإن كان القلب مطمئناً**"[45].

خاتمة:

هذا غيض من فيض، فالإبدال والإعلال والإدغام ظواهر صوتية كان لها الأثر البالغ في تكوين الصيغ الصرفية لتأخذ صورتها الأبهى والأروع في النطق، فتكون أكثر خفة على الألسنة، ويكون لها قبول في الآذان، فيمهد لها الطريق إلى القلوب فتستوعبها الأذهان والعقول.

الهوامش:

[1] السيوطي، المزهر، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ، 1988م، ج1، ص 70.

[2] الخليل بن أحمد، العين، تحقيق د مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج5، ص6.

[3] الخليل بن أحمد، العين، نفسه، ج7، ص5.

[4] عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للغة العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400هـ، 1980م، ص9.

[5] نفسه، ص 9.

[6] عبد الصبور شاهين، نفسه، ص10.

[7] كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م. ص 28.

[8] أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، الطبعة 3، 1429هـ، 2008م، ص 186.

[9] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط5، 1427هـ، 2006م، ص50.

[10] الطيب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص 24.

[11] علي خليف حسين، منهج الدرس الصوتي عند العرب، 1423هـ، 2002م، ص 8.

[12] نفسه، ص 8.

[13] فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ايتراك للنشر والتوزيع، ط 1، 2004، ص 120.

[14] نفسه، ص120.

[15] الطيب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص 20.

[16] نفسه، ص 121.

[17] مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ط2، 1377هـ 1958م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ص167.

[18] محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1997م، ص81.

[19] عبد الصبور شاهين، نفسه، ص 23.

[20] فندريس، اللغة، تعريب عبد الحميد الداوخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م، ص203.

[21] أحمد عمر مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998م، ص 39.

[22] عبد الصبور شاهين، نفسه، ص 25.

[23] محمد محمد داود، الصوائت والمعنى في العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م، ص 26.

[24] نفسه، ص 27.

[25] عبد العزيز بن عبد الواحد المغربي، منظومة المورث لمشكل المثلث، اعتنى بها، محمد تبركان أبو عبد الله، ص 124 و125.

[26] ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، ج4، 392.

[27] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج5، ص 29.

[28] نفسه، ج5، ص 32.

[29] نفسه، ج5، ص30.

[30] نفسه، ص 125.

[31] ابن فارس، نفسه، ج2، ص 93.

[32] ابن منظور، نفسه، ص 27.

[33] ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، الناشر محمد علي بيضون، ط 1، 1418هـ 1997م، ص143.

[34] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، 2ص 205.

[35] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج8، ص 238.

[36] نفسه، ج5، ص 401.

[37] ابن منظور، نفسه، ج3، ص 140.

[38] حمزة بوجمل، بلاغة الخفة والثقل في مفردات القرآن الكريم، مجلة الباحث، المجلد 7، العدد 1، ص 107.

[39] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج10، ص 246.

2 البقاعي، نفسه، ج8، ص 514.

[41] حمزة بوجمل، نفسه، ص 108.

[42] نفسه، ص 108.

[43] حمزة بوجمل، نفسه، ص 108.

[44] الطاهر بن عاشور، نفسه، ج2، ص 332.

[45] البقاعي، نفسه، ج3، ص 232-233.